

الدرس السابع عشر

التعليق على أمثال القرآن لابن القيم

الشيخ مشهور بن حسن ال سلمان.

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ وعلى آله وأصحابه أجمعين. أما بعد:

قال المؤلف رحمه الله في قوله تعالى: {رَفَعْنَا بِهَا} ومنها أنه سبحانه قال: (وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا) فأخبر سبحانه أن الرفع عند الله ليس بمجرد العلم (فإن هذا كان من العلماء) وإنما هي باتباع الحق إثاره وقصد مرضاة الله تعالى فإن هذا كان من أعلم أهل زمانه ولم يرفعه الله بعلمه ولم ينفعه به فتعوذ بالله من علم لا ينفع، وأخبر سبحانه أنه هو الذي يرفع عبده إذا شاء بما آتاه الله من العلم وإن لم يرفعه الله فهو موضوع لا يرفع أحد به رأساً فإن الخافض الرفع الله سبحانه خفضه ولم يرفعه، والمعنى: ولو شئنا فضلناه وشرفناه ورفعنا قدره ومنزلته بالآيات التي آتيناها، قال ابن عباس رضي الله عنهما: (ولو شئنا لرفعناه بعلمه بها) وقالت طائفة: الضمير في قوله (لَرَفَعْنَاهُ) عائد على الكفر، والمعنى، ولو شئنا لرفعناه عن الكفر بما معه من آياتنا، قال مجاهد وعطاء: (لرفعنا عنه الكفر بالإيمان وعصمناه) وهذا المعنى حق والأول مراد الآية، وهذا من لوازم المراد وقد تقدم أن السلف كثيراً ما ينيهون على لازم معنى الآية فيظن الظان أن ذلك هو المراد منها.

في طريق الآخرة التي نرجو الله تعالى أن يكون مال طريقنا إلى جنة الله وإلى رضوانه سبحانه وتعالى، فإن للحسنة أخوات وإن للسيئة أخوات وكان الواحد ممن قبلنا يفعل الشيء اليسير ليتوصل به إلى ما هو أكبر منه، كما كان يقول بعض تابعي أهل الكوفة اني لأعمل الحسنة طمعا في أختها التي هي أكبر منها وإني لأترك السيئة خوفاً من أختها التي هي أكبر منها. فكانوا -وهذا سبيل العقلاء وسبيل الموفقين- كانوا يتدئون بما يقدرون عليه ويتوجهون إلى الله تعالى بعبادة ما يقدرون عليه فإن فعلوا فإن الله لا يخذلهم. فيوسع عليهم إلى ما لا يقدرون عليه.

فالموفق في هذه الحياة شعاره أبداً بفعل ما أقدر عليه لانتهي في المال إلى ما لا أقدر عليه، لأن الأمر كله بيد الله سبحانه وتعالى، وأما أصحاب الفلسفة والمخدولين غير الموفقين يبدؤون برفع شعار ما لا يقدرون عليه، فلا يفعلوا ما يقدرون عليه ولا يتوصلوا إلى ما لا يقدرون عليه.

فنصيبنا في هذا المثل في هذه القصة في هذه النوبة ما بدأ به الشارح {وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا} آتاه الله تعالى الآيات وهو انسلخ منها انسلخ تاماً كلياً على وجه أصبح والعياذ بالله تعالى كافراً مرتداً خارجاً عن دين الله سبحانه وتعالى، وأشنع الكفر وأبشعه ما كان قائماً على علم لا على جهل، ولكن هذا العلم يشبه علم إبليس، فإبليس خاطبه الله خطاباً مباشراً ومع هذا كفر.

ما هو سر كفر إبليس؟

لا تقولوا كما يقول الخوارج.

الخوارج يقولون سر كفر إبليس أنه أبي السجود، لم يسجد. هذا فقط هكذا (أبي) هذا كلام الخوارج.

أُمر إبليس بالسجود فلم يسجد وأمر آدم ألا يأكل فأكل. إذا الله عندما قال {أَبِي} وَاسْتَكْبَرَ}، سر كفر إبليس الاستكبار.

كل بن آدم خطاء .

كل بشر سيخطئ.

من هم كل؟

كل، علماء والأولياء والصلحاء، كل ابن آدم خطاء، كلهم يخطئون أصحاب نزوات ولهم شهوة ولهم ما لسائر الناس، لكن الله يستر، الإنسان إن عصى الله تعالى بجهالة ولم تعقب المعصية الاستكبار، وتاب الى الله عز وجل فالله يستره، إلا والعياذ بالله تعالى أبي الإنسان إلا أن يفضح نفسه، فتمادى فأكثر ففعل المعصية مرة تلو مرة تلو مرة تلو مرة، فالله في سنته يفضحه ولا يستر عليه.

أخرج البيهقي في السنن الكبرى أن عمر جيء له بشاب سارق، فقضى أن يقطع يده فقالت أمه يا أمير المؤمنين إنه ما سرق قبلها، فقال عمر والله إنه لسرق وسرق وسرق وستر الله عليه فأبي إلا أن يفضحه الله، فأبي إلا أن يفضحه الله تعالى.

فإذا الإنسان يخطئ، لكن الأصل فيمن أخطأ أن يتوب وأن ينوب، وأما إبليس فاستكبر.

فهذا العالم الذي آتاه الله تعالى آياته وهو الذي ضرب الله تعالى به المثل في هذه الآيات من سورة الأعراف إنما هو عصي واستكبر، ليس فقط عصي ثم اعترف ثم تاب وأتاب وقال رب

اغفر لي، وإنما استكبر مباشرة فأتبعه الشيطان، أصبح الشيطان يتبعه، ليس هو تابعا للشيطان وإنما الشيطان يتبعه، فكان من الغاوين، من أهل الغواية، والغواية الانحراف إلى الشهوة والخلود إلى الأرض بمعرفة الحق لذا نسأل الله عز وجل العافية، العالم الأصل أن ينفع الناس بلحظه وصمته وسكوته وهديه، كما فعل النبي ﷺ وأصحابه، كانوا دعاة إلى الله عز وجل بهديهم وسمتهم.

قال الله عز وجل: {وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا}.

متى يُرفع الإنسان بعلمه؟

بالعمل به.

الإنسان إن آتاه الله تعالى العلم ينبغي كما تميز عن الناس بعلمه أن يتميز عن الناس بسمته وأخلاقه، وأما إن كان من آتاه الله تعالى العلم جاهل كسائر الناس ويخوض كما يخوض الناس ويتكلم بالحق والباطل ويتكلم في أعراض الناس، فهذا والعياذ بالله تعالى الويل له.

لذا ينبغي أن ننتبه شديداً، وأن نركز كثيراً، وأن ندقق فيما دعا إبراهيم، وقد ذكرت لكم هذا أكثر من مرة {رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۗ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} قال يعلمهم ويزكيهم فاستجاب الله تعالى له بقوله {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ} ما قال يعلمهم ويزكيهم، إبراهيم دعا يعلمهم ويزكيهم، استجاب الله له بماذا؟ بقوله: {يُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ}.

طالب العلم والعالم إن كان صاحب تركية وحريص على هضم نفسه وهذه خصلة وخلق مترکز عند كل صالح هاضم لنفسه، عائشة في صحيح البخاري لما خاض الناس في عرضها ما

خاضوا فأنزل الله براءتها في سورة النور، فكانت تقول لأن هذا الخلق متركز في نفسها، كانت تقول (إن شأني في نفسي أحقر من أن ينزل الله تعالى فيه قرآن يتلى إلى يوم القيامة، وكل الذي كنت أرجوه منام يبرئني الله تعالى به، منام يريه الله لنبيه ﷺ وأبرا به، ولكن الله جل في علا أنزل فيها قرآنا، وهذا دلالة على أنها هاضمة لنفسها.

فطالب العلم لما يبدأ يعرض نفسه ويعرض عضلاته وأن هذا العلم قد أوتيته بقوة منه. هذا والعياذ بالله تعالى من أسوأ خلق الله.

وهذا فيه خصلة من خصال بلعام بن باعوراء، بلعام الله قال عنه {وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا}.

متى يُرفع الإنسان بعلمه؟

بالعمل به.

لذا قالوا ويروى هذا حديثا وهو ليس بحديث (من عمل بما يعلم ورثه الله علم ما لم يعلم). وعلي رضي الله تعالى عنه كان يقول: هتف العلم بالعمل فإن أجابه وإلا ارتحل، لا يمكن لأحد أن يصل إلى درجة اليقين في العلم إلا إن كان العلم مشفوعا بالعمل، فالعلم دون عمل لا يوصل لليقين.

الآن العلم الشرعي يطلب بالطرق الموجودة اليوم في الجامعات والمعاهد إلا في بعض الأماكن التي رحم الله تعالى بها الناس طرقه دنيوية، الجامعات خرجت أفواجا والأفواج تعد بمئات من كليات الشريعة لا أثر لهم في المجتمع، لا وجود لهم في المجتمع، السبب الله ما رفعهم.

قال {وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا}

من أين الرفعة في العلم؟

هي من الله.

ومتى يُرفع الإنسان بعلمه وأن تكون هذه الرفعة تصحبها التزكية وتصحبها الهداية والتوفيق والعصمة، ولا سيما في الأحداث الجسام التي تمر بالأمة.

متى يُوفق الإنسان إلى معرفة الصواب في هذا الأمر كله؟

الأمر عنده سبحانه وتعالى. { وَكَوْشُنَّا لَرْفَعْنَاهُ بِهَا } .

لجعلناه من الموفقين العاملين بفضل ما علمه سبحانه وتعالى.

قال { فَانْسَلَخْ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ } { وَكَوْشُنَّا لَرْفَعْنَاهُ بِهَا } تأمل معي جيداً. انسلخ هو.

فعل انسلخ عائد عليه هو.

هو الذي انسلخ منها.

والرفعة عند من؟

عند الله.

ولو شئنا لارتفع بها؟

لا.

لرفعناه بها.

من الذي يرفع الناس ومن الذي يخفض الناس ومن الذي يضع القبول للعلماء على مر

الأجيال وتوالي الأزمان؟

الله.

وهذا أخبر عنه النبي صلى الله عليه وسلم في صحيح البخاري وقال قاعدة مضطردة تبقى قائمة إلى يوم الدين قال صلى الله عليه وسلم فيما أخرج البخاري قال (حق على الله ما ارتفع شيء من الدنيا إلا وضعه)

حق على الله.

ما معنى حق على الله؟

سنة لا تتخلف أبدا ، سنة ثابتة باقية إلى يوم الدين .

من طلب العلم لغير وجه الله بنية فاسدة هل هو داخل في قوله ﷺ (حق على الله ما ارتفع شيء من الدنيا) ؟

الله جل في علاه لا يغالب.

فمن سلك مسلك مسلماً مسلماً في ظاهره الصلاح وهو لا يريد الصلاح فهذا داخل تحت قوله صلى الله عليه وسلم (حق على الله ما ارتفع شيء من الدنيا إلا وضعه) لا بد أن يوضع.

انظروا إلى علمائنا -علماء الأمة- لو أردت أن تحصيهم تحتاج إلى مجلدات من زمن النبي صلى الله عليه وسلم إلى هذا الزمان، لو أردت أن تحصي علماء الأمة قرائها ومفسريها ومحدثيها وما شابهه لاحتجت إلى مئات المجلدات.

القبول الله وضعه لأناس معروفين، أسمائهم تتردد.

طلبة العلم على ألسنتهم دائما: قال ابن عبد البر ، قال البيهقي، قال شيخ الإسلام بن تيمية، قال ابن القيم ، قال ابن رجب وما شابه.

هذا من ضمن: حق على الله ما ارتفع شيء من الدنيا إلا وضعه، هؤلاء فيما نحسب والله حسيبهم أرادوا الآخرة، فلما أرادوا الآخرة رفعهم الله. الرفعة بيد الله.

ترى تجلس مع أناس علماء كبار.

أنظر إلى علماء أهل السنة في هذا الزمان.

أنظر إلى مشايخنا الكبار وما هو سر رفع هؤلاء البشر؟

العمل، ليس كثرة العلم.

زارني مرة أخ من المدينة النبوية، فقال: أنا جئت من المدينة إليك فقط لتجيبني عن سؤال.

قلت له: تفضل.

قال: الشيخ الألباني وضع الله له القبول للقاصي والداني، والناس بعد كل حديث للنبي صلى

الله عليه وسلم يقولون صححه الألباني، حتى الناس ظنوا أن الألباني كالبخاري من السابقين

يعني - كثير من إخواننا يقول كنت أظن والله الألباني من زمان-، ما هو السبب؟

قلت: السبب أنا لا أعرفه، هذا عند الله عز وجل، لكن أنا فيما أحسب أن الله تعالى وضع

القبول لشيخنا الألباني -رحمه الله- في هذا الزمان بأنه إذا ثبت عنده حديث كان يناضل

ويدافع ويجهد أن يعمل به العمل ، الحرص على تعظيم النبي ﷺ، كأن النبي ﷺ يخاطبه، تخيل

أن النبي خاطبك بحديث وهو موجود، لأن هذه الأسانيد وكل هذه الدراسة، والشيخ أفنى

عمره في دراسة الأسانيد، هذه كلها وسائط حتى يثبت أن النبي ﷺ قال أو ما قال.

سمعت الشيخ مره يقول: في الحديث في الصحيحين إزره المؤمن إلى أنصاف ساقيه، قال والله أنا الآن لو فعلت إزره المؤمن ومشيت في الشارع نصف ساقى، اجعل الناس يستهزئون بحديث رسول الله ﷺ. قال: ولكنى كما ترانى -يقول الشيخ: كما ترانى- في مكتبتى لا أجلس إلا وزىي إلى نص ساقى، قال هذا حديث أنا أعلم به، لكن أعلم به بفقته، وبسبب غربة المسلمين اليوم لا اجعلهم يستهزئون برسول الله، لكن نصيبى منه في خلوتى في مكتبتى اجلس وأنا لا بس إزرىي إلى نصف ساقى، فكان حريصاً جداً على كل شيء فيه عمل، فالله جل في علاه ذكر لنا قصة [الذي آتينا آياتنا ولو شئنا لرفعناه بها]، قال: فإن هذا كان من أعلم أهل زمانه، من أعلم الناس ولم يرفعه الله تعالى بعلمه، ولم ينفعه بهذا العلم.

نعوذ بالله من علم لا ينفع.

كان النبي ﷺ كما ثبت في الصحيح يتعوذ من علم لا ينفع. الناس الذين لا يعملون بما يعلمون، سيحرمون ما يعلمون ويعذبون على ما يعلمون، والناس الذين يعملون بما يعلمون الله سيكرمهم سبحانه وتعالى بما ينفعهم في دنياهم وأخراهم. هنا لفظة، وهذه اللفظة لا تخص هذه الآية، وإنما هذه لفظة تخص منهجاً كلياً عند كل طالب علم، أشار إليها الإمام ابن القيم في آخر كلامه، وحتى تتضح هذه اللفظة لا بُدَّ لها من مقدمة يسيرة وسنأتى على تفسيرها بإذن الله لما نتكلم في درس علم الأصول. الله جل في علاه الفرق بين كلامه سبحانه وكلامنا كالفرق بين ذاته وذواتنا. فكلامه [لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد]. العلماء يستنبطون من القرآن لأن فيه الغنية والكفاية وحاجة الناس إلى يوم الدين، فهو تبيان لكل شيء.

-ليس العربي الذي يفهم ويتقن اللسان العربي وإنما العلماء - فالقرآن فيه كل شيء، فيه كل شيء بخلاف كلام البشر.

كلام البشر يعتره النقص ويعتره التناقض، بل يقول شيخ الإسلام في أكثر من كتاب كتبه يقول: ما من عالم إلا وهو متناقض.

كل علماء الأمة متناقضين!؟

نعم كل علماء الأمة متناقضين.

عالم متناقض!

العالم لازم كلامه ليس بلازم، ولذا العلماء يقولون: لازم المذهب ليس بمذهب.

أنا كلامي تأخذ مني وتدينني بصريح كلامي ومنطوقه، أما لوازمه فقد أتكلم كلاماً له لوازم وأنا ما انتبهت إليها، فلازم كلامي ليس مذهباً، أما القرآن فلازم كلام الله مذهب، ولازم كلام الله حق، لأن كلام الله لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

ما معنى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؟

ولا بأي طريقة من الطرق، كلام الله حق ولوازمه حق.

ولذا أعمل الصحابة والتابعون كلام الله بمنطوقه وأعملوا اللوازم التي تنبئ عليه. هذه نقطة المقدمة، بعد هذه المقدمة آتي لنتيجة، النتيجة التي الآن نحن أمامها وهي مهمة، النتيجة أن بعض الصحابة والتابعين بل هو الغالب على الصحابة والتابعين يذكرون أقوالاً في التفسير لقول الله عز وجل ولا يذكرون أن هذا هو منطوق النص وإنما هذا لازم منطوق النص.

فهل هذا فيه عيب!؟

فيه عيب بالنسبة إلى أذهاننا، لأنه إن غابت عنا هذه الحقيقة ضللنا، فنخلط بين مراد الله وبين لازم مراد الله.

لكن لما نفهم دقة الإمام ابن القيم المتناهية لما تعرض لتفسير قول الله عز وجل [ولو شئنا

لرفعناه بها] قال ولو شئنا لرفعناه، الضمير في لرفعناه ، الهاء يعود على ما ؟

القاعدة عند اللغويين الضمير يعود ماذا في اللغة؟

يقول علماء اللغة وهي قاعدة متفق عليها يقولها القاصي والداني ولا خلاف فيها: أن الضمير يعود على أقرب مذكور.

الآن لرفعناه.

الهاء لرفعناه بما رفع ماذا؟

نرى ماذا يقول ابن القيم في كلمات قليلة بأسطر قليلة، لكنها تضيئ لك منهجاً ولا سيما إذا كنت تقرأ في تفسير من أمثال ابن كثير أو تفسير ابن جرير أو تفسير الصحابة والتابعين، وقل من تفسير إلا ويذكر أقوال الصحابة والتابعين. فأنت الآن يُعطيك نوراً و ضوءاً وهذا الضوء مهم جداً ليست في هذه الآية فقط وإنما هو منهج عام لتفسير القرآن الكريم.

قال: لو شئنا فضلناه وشرفناه ورفعنا قدره ومنزلته بالآيات التي آتيناها، ولو شئنا لرفعناه بعلمه بها، ولو شئنا لرفعناه بعلمه -الله أثبت له علماً وأثبت له انحرافاً، الانحراف موالاة للكافرين، ادعو على موسى، بس دعاء على موسى، هذا هو الانحراف، خوف ورعب أن قلبك يميل للكافر، قلبك يميل لليهود خوف ورعب.

[تأمل فانسلك فأتبعه] الفاء.

أمر خطير جداً ألا يكون في قلبك حب وولاء للمؤمنين، أيأ كان تحت أي سماء وفوق أي أرض. أنا عندي ولاية للمؤمن أينما كان في أي البلاد.

قال: ولو شئنا فضلناه وشرفناه ورفعنا قدره ومنزلته بالآيات التي آتيناها.

قال ابن عباس: ولو شئنا لرفعناه بعلمه بها -رفعناه بها أي بعلمه بها، المشيئة إليه سبحانه وتعالى،-

الآن الشاهد، وقالت طائفة - هذه الطائفة ذكر منهم أقوال التابعين وذكر قولي مجاهد وعطاء وكلاهما من التابعين - وقالت طائفة الضمير في لرفعناه عائد على الكفر.

نظر في الآية بالسياق والسباق لنستفيد أيضاً قاعدةً كليةً أخرى جديدة في معرفة التفسير. التفسير قائم على قواعد، كالفقه قائم على قواعد، علم الحديث قائم على قواعد، من تكلم في الحديث تصحيحاً وتضعيفاً هو يتبع قواعد، من تكلم عن مسألة فوجَّهها في الأحكام الفقهية جِلاً وحرمةً قائم على قواعد، كذلك التفسير.

[واتلوا عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ولو شئنا لرفعناه بها]

مجاهد وعطاء يقولون ولو شئنا، يقول لرفعناه عنه الكفر بالإيمان وعصمناه، رفعناه عنه الكفر هل هذا صحيح؟

صحيح.

لكن هل هذا هو تفسير الآية أم أنه لازم للآية؟

هذا اللازم وليس هو التفسير .

القاعدة الجديدة المهمة وهذه القواعد تحتاج لبسط، لكن أتكلم بما يأذن به المقام، وفيما نتكلم عن الأمثال.

العلماء يقولون سياق الآيات وسباقها منهجٌ مأمونٌ في تفسير القرآن.

الآية ينبغي أن تراعي في فهمها السياق والسباق، إذا نظرت للآية والمراد بها لرفعناه بها إن عمل بها، وليس المراد لرفعناه الكفر عنه بها.

لكن لرفعناه بها إن عمل بها - ولأن كلام الله لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه - يتضمن أنه لو كفر بها لو شاء الله لرفع الكفر.

وهذا أمر مهم للغاية على معتقد أهل السنة الذين يُفَرِّقون بين مشيئة الله في شرعه ومشيئة الله في كونه على النحو الذي فصلناه لما شرحنا كتاب التجريد.

ولذا سبحان الله الإمام ابن القيم ختم تفسير هذه الآيات بالفتنة العجيبة الغربية التي رد فيها على شيخ المعتزلة صاحب ذاك التفسير الشهير الذي ملأه بالفتات البلاغية البيانية، الزمخشري في كتابه الكشاف.

فالكشاف فسّر هذه الآيات على نحو فيه انحراف عن أصل عقدي بعدم التفريق بين مشيئة الله في كونه وفي شرعه.

الخلاصة لرفعناه يعود على الكفر، هذا لازم والمراد أنّ الله جل في علاه لو شاء لرفعه بها، لو أنه عمل لرفعه بهذه الآيات هذا ليس هو تفسير الآية وإنما هو لازم.

اللوازم عقلية وشرعية، واللازم هو الذي ما ساق الله تعالى الآيات من أجل هذا المعنى، وإنما انقذ في العقل ما هو لازمه وما ساق الله أصلاً الآية من أجل هذا المعنى. هذا هو اللازم.

قال المؤلف -رحمه الله-: وقوله: (وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ) ، قال سعيد بن جبیر : ركن إلى الأرض، وقال مجاهد : سكن، وقال مقاتل رضي بالدينا، وقال أبو عبيدة: لزمها وأبطأ،

والمخلد من الرجال هو الذي تبطئ مشيته ومن الدواب الذي تبقى ثناياه إلى أن تخرج رباعيته.

وقال الزجاج: خلد و أخلد ، وأصله من الخلود وهو الدوام والبقاء ويقال: أخلد فلان بالمكان

إذا أقام به. قال مالك بن نويرة: بأبناء حيٍّ من قبائل مالك وعمرو بن يربوع أقاموا و أخلد

قلت: ومنه قوله تعالى: (يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ) أي قد خلقوا للبقاء لذلك لا يتغيرون

ولا يكبرون وهم على سن واحد أبدا ، وقيل هم المقرطون في آذانهم والمسورون في أيديهم

وأصحاب هذا القول فسروا اللفظ ببعض لوازمه وذلك أمانة إلى التخليد على ذلك السن فلا

ينافي القولين.

الكلام دقيق والكلام مهم، وقلت لكم: أن الأصل في أقوال المفسرين أنها تُحمّل على التنوع لا على التضاد، فأقوالهم يكمل بعضها بعضاً وليست أقوال الصحابة والتابعين في آيات التفسير وهذا هو الغالب على أقوالهم إلا اختلاف التنوع.

الخلافا قسمان:

خلاف تنوع وهو محمود، وهو الذي يسميه ابن حبان وابن خزيمة الخلاف المباح. وخلاف التضاد، الأقوال المتضادة لا يمكن أن يُجمع بينها، وهذا الخلاف المذموم. وأول من وجدته يقسم الخلاف إلى تنوع وتضاد الإمام ابن قتيبة وهو من وفيات القرن الثالث توفي سنة (276)، خلاف مستساغ وخلاف غير مستساغ. ننظر الآن: ولكنه أخلد إلى الأرض.

كثّر الإمام ابن القيم أقوال أئمة التفسير، فبدأ بقول أبي محمد سعيد بن جبير قال: ركن. أخلد: ركن.

الدنيا والآخرة ضدان لا يجتمعان، إن قربت من الدنيا ابتعدت عن الآخرة وإذا قربت من الآخرة ابتعدت عن الدنيا.

واحد يريد دنيا وآخرة في هذه الحياة أمر ذلك عسير، لأن العالم الواجب عليه أن يُبين، فإن بيّن ووضح وفسر فهذا يُعرضه أن يُحرم من هذه الدنيا، وأن تدخل عليه المشاق والمتاعب والفتن وما شابه.

هذا الرجل الذي آتاه الله تعالى آياته ما ارتفع، {وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا} ولماذا لم يرتفع؟

قال: ولكنه أخلد إلى الأرض: ركن إلى الأرض، ركن إلى الشهوات والملذات، قال (رَكَنَ) سعيد بن جبير؛ مجاهد قال: (سَكَنَ) يا الله! السكينة، الأصل في الآيات وفي نشر العلم أن يدخل على المتكلم والمستمع السكينة، والسكينة عند العالم تحتاج إلى أمرين: العلم والحلم، العالم حتى تحصل عنده السكينة يحتاج إلى علم.

العلم مادة ثقيلة، لا يوجد وعاء يَحْمِلُهُ مهما كانت صلابة هذا الوعاء.

ما الذي يَحْمِلُ العلم؟

الجواب: (الحلم).

العلم لأنه ثقيل لا يَلْزِمُهُ إلا الحلم.

هذا الرجل ما هو حلِيم ، الذي ضَرَبَ اللهُ به المثل، مباشره نزع إلى الشهوات، والناس أمام العلم والحلم وهذه من فوائد ابن القيم في كتابه إعلام الموقعين، وأنا أنصح بقراءة مقام السكينة من إعلام الموقعين، وذكره في المجلد السادس صفحة 107 فما بعد من الطبعة التي يَسَّرَ اللهُ لي أن نَشْرُتْهَا، وأنا أنصح كل طالب علم يقرأ مقام السكينة وإذا ما تيسَّرَ الإعلام يقرأها من كتاب مدارج السالكين.

يقول الإمام ابن القيم: (الناس هنا أمام العلم والحلم أربعة أقسام، خيار الأصناف الأربعة مَنْ آتاه اللهُ تعالى العلم والحلم، وشرار الناس من عَدَمَهُمَا لا علم ولا حلم). دابة تتحرك تأكل وتشرب وتجامع، مثل الناس إلا مَنْ رَحِمَ اللهُ -جلَّ في عُلَاه-، عاش للشهوة "من البطن وانزل".

قال: (خير الناس من عنده علم وحلم، وشر الناس من عدمهما)، قال: (الثالث من آتاه اللهُ تعالى علماً) وهذا كثير، الغالب في طلبية العلم من آتاه اللهُ تعالى علماً بلا حلم، والرابع العكس: (مَنْ آتاه اللهُ حلماً بلا علم، فالعلم زينة العلم وبهاؤه وجماله، وضِدُّه ما كان عليه هذا الرجل، ضده الطيش والعجلة والحِدَّة والتسرع وعدم الثبات، فالحليم لا يَسْتَفِزُّهُ البَدَوَات ولا يستخفه الذين لا يعلمون ولا يقلقه أهل الطيش والحِفَّة والجهل، بل هو وقورٌ ثابتٌ ذو أناة،

يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ وُرُودِ أَوَائِلِ الْأُمُورِ عَلَيْهِ وَلَا تَمْلِكُهُ أَوَائِلُهَا، وَمَلَا حِظَاتِهِ لِلْعَوَاقِبِ تَمْنَعُهُ مِنْ أَنْ تَسْتَحِفَّهُ دَوَاعِي الْغَضَبِ وَالشَّهْوَةِ، فَبِالْعِلْمِ تَنْكَشِفُ لَهُ مَوَاقِعُ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ وَالصَّلَاحِ وَالْفَسَادِ، وَبِالْحِلْمِ يَتِمَكَّنُ مِنْ تَثْبِيتِ نَفْسِهِ عِنْدَ الْخَيْرِ فَيُؤَثِّرُهُ وَيَصْبِرُ عَلَيْهِ، وَعِنْدَ الشَّرِّ فَيَصْبِرُ عَنْهُ، فَالْعِلْمُ يُعْرِفُهُ رُشْدَهُ وَالْحِلْمُ يُثَبِّتُهُ عَلَيْهِ).

يعني العالم عنده حلم وعلم وبدايات الأمور لا تستخفه ولا تجعله يطيش ولا يفعل ويثبت.

يقول ابن القيم: (وإذا شئت أن ترى بصيراً بالخير والشر لا صبر له على هذا ولا عن هذا رأيت، إذا شئت أن ترى بصيراً بالخير دون علم رأيت، وإذا شئت أن ترى صابراً على المشاق لا بصيرة له رأيت، وإذا شئت أن ترى من لا صبر له ولا بصيرة رأيت، وإذا شئت أن ترى بصيراً صابراً لم تكذتراه، فإذا رأيت فقد رأيت إمام هدىً حقاً فاستمسك بعززه، والوقار والسكينة ثمرة الحلم ونتيجته).

فهذا الرجل أخلد إلى الأرض، ما عنده حلم أبداً، أخذ الأمور ببداياتها ونظر إلى الشهوات والأمانى والوعود التي وعد بها (الهدايا)، هو قال واهدوا له هدية، فدعا على موسى -عليه السلام-، وهذه كانت القصة فيما ذكر مقاتل عن بني إسرائيل.

قال مقاتل أخلد أي: (رضيَ بالدنيا) هذه كلها نفس الشيء سكن أخلد رضي بالدنيا هذه كلها ماذا قلنا عنها؟

الجواب (خلاف تنوع).

لماذا سكن؟

لأنه رضي.

كذلك أخذ أي: (رَكَن) قال أبو عبيدة، مَنْ أبو عبيدة؟

مِنْ أوائل مَنْ كتب في التفسير وله كتاب مطبوع (مَعْمَر ابن المثنى أبو عبيدة)، له كتاب اسمه: (مَجَاز القرآن) وهذا النقل منه، أبو عبيدة يقول: لَزِمَهَا وَأَبْطَأَ، والمِخْلَدُ من الرجال الذي يبطئ مَشِيئَةً، كل شيء فيه خلود فيه بقاء وفيه استقرار وفيه ثبات، أخذ إلى الأرض، لذا هو انسلخ من آيات الله، لأن (أخذ إلى الأرض كانت مقابل رفعناه بها)، خلود وثبوت واستقرار من أجل دنيا فانية وشهوة زائلة ومنصب زائف.

فالذي يفسد أهل الديانة المناصب والمكاسب والرواتب والسمعة.

بعض الناس يقول أنا ما أتكلم عن الربا إن جلست مع تجار، وإذا جلست مع نساء ما أتكلم عن التبرج.

لماذا؟

قال: التجار ينفرون مني لا يقبلون كلامي.

داء المال الربا وداء النساء التبرج.

قال حتى يبقى لي اسم وجاهير يسمعون كلامي، لَمَعَ اسمه، أراد الخلود، وأنتم لا يخفى عليكم عمرو قبله (عمرو خالد).

لماذا ما تتكلم؟

قال أنا التجار أرضيهم، تكلمت عن الربا فأصبح لا يسمع لي أحد، ولا يسمع له أحد والشيء الذي طَلَبَهُ حُرْمَهُ، هذه سنة لله، الذي يقرأ الآيات يفهم سنن الله - جل في علاه -

فما أحد يلتفت إليه لأنه عَظَّمَ الناس وما عَظَّمَ أمرَ الله، الذي يعظم الناس على حساب أمر الله، الله لا يعظمه، والذي يُعظم أمر الله وإن غضب الناس الله يرفعه، الله -جل في علاه- يرفعه، هذه سنن، وهذه السنن ما ينبغي أن تغيب عنا.

قال: {وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهَا بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ} سكن إليها، قال: (المِخْلَدُ).

من هو المِخْلَدُ؟

قال: الأصل في اللغة المِطِطِيُّ، المِطِطِيُّ في مَشِيهِ يُسمى في العربية المخلد من الرجال، ومن الدواب الناشئ الصغير الذي تظهر ثناياه ولم تخرج رُباعياته.

قال الرَّجَاجُ: (خَلَدَ وَأَخْلَدَ) الزجاج له كتاب (معاني القرآن وإعرابه)، وثم قال الأصل من الخلود، والخلود أخلد أي استقر وثبت وأصله الدوام والبقاء، ولذا الله يقول: {وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وُلْدُنٌ مَّخْلُودُونَ} لماذا ولدان مخلدون يطوف على أهل الجنة؟ خَلَقْتُهُم التي هم عليها لا تتغير، الجنة خلود، والجنة مدة من الزمن لا تنتهي، خلود في الجنة، ويبقى الذين يطوفون على أهل الجنة كما قال الله -عز وجل- (ولدان مخلدون) يبقوا ولد، تمضي السنوات ويبقى ولد، أولاد هكذا، الله هكذا سَحَّرَ لأهل الجنة ولدان، لماذا قال عنهم مخلدون؟

لأن معنى مخلدون باقون على أنهم ولدان، يمضي الزمن وهم لا يكبرون؛ الأصل في الدنيا إذا مضى الزمن يكبر الانسان، اليوم ولد ولكن بعد عشر سنين بعد عشرين سنة لا يبقى ولد، لكن في الجنة ولدان مخلدون.

لماذا قال الله عنهم ولدان مخلدون؟

قالوا: مخلدون يعني يبقون ولدان ما يكبرون، قال أي خُلِقُوا للبقاء، بعضهم قال لا الولدان المخلدون هم الذين في آذانهم أقرط وفي أيديهم أساور وهذه علامة خاصة بهم يبقون على هذا الحال مخلدون، وبعضهم ذكر اللّازم وهي الأشياء التي لا تنفك عنهم.

فهذا أخذ أصبح قلبه معلقاً بالدنيا وتبعاتها ولا يقيم وزناً للآخرة ولا ينشرح صدره لأي عمل يخص الآخرة، السبب الهوى، والهوى هوان، والهوى سببه أن صاحبه يَسْتَفِلُّ، وصاحبه لا يتعلق بمعالى الأمور وإنما يتعلق بأسافلها، نسمع كلام الإمام ابن القيم.

قال المؤلف -رحمه الله- في قوله تعالى { وَأَتَّبَعَ هَوَاهُ } : (وقوله وَأَتَّبَعَ هَوَاهُ ۖ قال الكلبي اتبع مسافل الأمور وترك معاليها، وقال أبو روق اختار الدنيا على الآخرة، وقال عطاء أراد الدنيا وأطاع شيطانه، وقال ابن زيد كان هواه مع القوم يعني الذين حاربوا موسى وقومه، وقال يمان اتبع امرأته لأنها هي التي حملته على ما فعل).

اتبع هواه، طبعاً المرأة تابع هوا ولازم هوا، المرأة لها أثر على الرجل، ابن القيم يقول: (الرجال على ديان نساءهم)، وأنا أقول الرجال أبواق لرغبات النساء في البيوت اليوم إلا من رحم الله. اتبع هواه أي اتبع أسافل الأمور وترك معاليها هذا هو الهوى، في هوى وفي عقل، هوا شهوة ونزوة، نزوة زائلة، لذا علامة هل المرأة التي تحكم البيت أم الرجل، لمعرفة الذي يحكم البيت مسألة سهلة، علاقة الأسرة مع الأسر الأخرى من الأقارب والجيران ومن حولهم، إذا كانت ثابتة على وتيره واحدة الحاكم هو الرجل، وإذا كانت متقلبة وتعصف فيها الأهواء فالحاكم هو المرأة، مسألة واضحة يعني في هذه الأمور، هذا الرجل اتبع هواه، اتبع الأمور التي فيها تَسْفُل وليس التي فيها سمو.

الدنيا ما هي شهواتها؟

الدنيا وما أدراك ما الدنيا؟

لو نتأمل اسمها، تأمل كما يقول الرازي في سورة النحل، يقول تأمل الأماكن التي تلتذ منها والأماكن التي تتألم منها، كم مكان تلتذ منه؟

الجواب: (محصورة).

كم مكان تتألم منه؟

الجواب: (كل بدنك، تتألم من كل مكان في البدن)، تتألم الألم من كل البدن واللذة قليلة.

تأمل مسألة أخرى، كم مدة اللذة، اللذة التي يبيع الناس دينهم من أجلها كم مدتها؟ لو بقيت اللذة لا تنقطع ودائمة فترة الحياة وكم تركوا من النعيم بعد هذه المدة؟

مسألة ثالثة، مدة انقضاء اللذة كم تكون؟

أطول لذة ماهي؟

الجواب: أطول لذة للإنسان هي النوم، النوم دلالة على نقص، الله - جل في علاه - قال: {لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ} السنة مقدمات النوم، والله ما ذكر لا تأخذه سنة ولا نوم إلا بعد إن ذكر قوله تعالى: {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ} المدح أنه حي قيوم، فجاء لا تأخذه سنة ولا نوم، ليبين أن الحياة دائمة وأن الحياة لله - جل في علاه - لا تأخذه نوم، والقيومومة دائمة (لا تأخذه سنة) قيمومة دائمة وحياة دائمة {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ}.

فهذه الملذات مدتها وبقائها قليل، فهذا الإنسان اتبع هواه، فمن اتبع هواه في أمور الدين يَعُقِبُهُ فكان من الغاوين، وفي أمور الدنيا يَعُقِبُهُ فكان من النادمين، الذي يقدم الهوى في حلال، في حلال ليس في حرام وفي أمور دنيوية خالصة يعقبه ندم، وإن كان الأمر في الشرع فهذا غاوي، فكان من الغاوين.

هنا نأتي لكلام الإمام ابن القيم لمسألة دقيقه لا نستطيع أن نتكلم عنها بتفصيل لأننا تكلمنا عنها في كتاب التجريد فنقرأ على وجه العجلة كلام ابن القيم وبه ختم الإمام ابن القيم كلامه على المثل، ثم نأتي بعبارات له مهمة في كتابه الفوائد وله لفته جيدة في كتابه زاد المعاد وبهما نختم درسنا إن شاء الله.

نأتي الآن للكلمة - و انتبهوا للكلام فالكلام دقيق - .

قال رحمه الله تعالى: تفسير الاستبدال في الآية فإن قيل: لكن للاستدراك فيقتضي أن يثبت بعدها نفي ما قبلها، أو نفي ما أثبت، كما تقول: لو شئت لأعطيته، لكني لم أعطه، ولو شئت لَمَا فعلت كذا لكني فعلته، فالاستدراك يقتضي ولو شئنا لرفعناه بها ولكننا لم نشأ، أو لم نرفعها، فكيف استدرك بقوله { وَلَكِنَّهُ أَحْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ } { بعد قوله } : لَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا . {

انتبه حتى أعطيك الآن المفتاح -مفتاح للتأمل- . أهل السنة يقولون هنا المستدرك في قوله سبحانه وتعالى ولو شئنا لرفعناه بها ولكننا لم نشأ، بناءً على عموم قدرته سبحانه وتعالى وبناء على أن الله جل في علاه إرادة شرعية وكونية و يفرقون بين الإرادة الشرعية والكونية، وفصلنا في درسنا في شرحنا على تجريد التوحيد أن الفروق بين الإرادتين عن عشرة أوجه ذكرنا العشرة وذكرنا مثلاً جيداً يعني يُدلل على ما نريد، المعتزلة و الزمخشري من أئمتهم ومفسريهم لخص

تفسيرا للحاكم الجشمي وهذا التفسير طُبع حديثاً وخبباً بحكم مقدرته في اللغة واللعب بالألفاظ والكلمات خبباً الاعتزاليات وراء العبارات ولكن الأئمة الثقات انتبهوا لها وكان انتباه الأئمة على وجهين:

الأمر الأول : فصلوا وبينوا هذا الضلال، وأهم من صنع هذا البلقيني في كتابه (الكشاف على الكشاف) فقال أهل العلم وكان هو ذكر هذه الكلمة وهذا حق قال: بيّنت اعتزاليات الزمخشري بالمنقاش، تتبعته بالمنقاش وذكرت القول وما أريد منه وهو مُحَبَّباً، فأنا كنت أقول و ما زلت أقول لو طالب علم يجمع التفسير الذي طُبع حديثاً للحاكم الجشمي وهو زيدي معتزلي، الزيدية أهل اليمن، الزيدية معتزلة في العقيدة الزيدية المنتمين للشيعة وهم أخص الشيعة ضرراً ويحترمون الصحابة بخلافه الشيعة الاثني عشرية، الزيدية عقائدهم معتزلة، فالحاكم الجشمي هذا زيدي معتزلي وكتابه مبسوط و الزمخشري اعتمده و خبباً لو إنسان التفسير هذا الآن صار بين أيدينا ووضعنا أمامنا تفسير الكشاف لعرفنا ما خبباً لكن استطاع البلقيني رحمه الله أن يبين هذه المخبآت دون أن يقف على تفسير الحاكم الجشمي وفي هذا دلالة على توفيق وعلى أنه بحر في العلم .

في طريقة ثانية لعلي أوامات لها في بعض الدروس في هذا الكتاب الطريقة الثانية: العلماء نبذوا اعتزاليات الزمخشري من كشافه باختصارات، فاختصروا كلام الزمخشري وحاولوا أن ينبذوا منه الاعتزاليات، وأهم من صنع هذا تفسيران وضع لهما القبول.

درسنا الأول منهما في الجامعة أيام ما كنا ندرس في الجامعة الآن الطلبة لا يقرؤون كتباً قديمة مذكرات ومشى الحال و للأسف طبعاً .

تفسير النَّسْفِي (مدارك التنزيل وحقائق التأويل) فالنَّسْفِي لخص كلام الزمخشري وكان مقصده في صنيعه أن ينبذ الاعتزاليات، والثاني البيضاوي في (أنوار التنزيل وأسرار التأويل) وكان كذلك اختصر كتاب الكشَّاف وكان همّه أن ينبذ الاعتزاليات، وقفت على مخطوطه نفيسة من قريب في توبنجن في ألمانيا البقايا التي بقيت فيها اعتزال في الكشَّاف ككتاب أنوار التنزيل عند البيضاوي بقيت بقايا ما انتبه لها وهذه الرسالة ينبغي أن تنشر .

الشاهد الآن الكلام الذي نريد أن نقوله ما هو مذهب المعتزلة في الآية ؟

قلنا مذهب المعتزلة يوضحه تلك المحاوراة التي وقعت في حضره ذاك الأمير وذاك الأمير هو الصاحب ابن عبَّاد فزاره مرة عالم من علماء أهل السنه أبو إسحاق الإسفراييني وكان مجلسه حافلا بأهل الاعتزال فانبرى للرد على أبي إسحاق الإسفراييني واحد من أئمتهم من أئمة المعتزلة فقال بأعلى صوته مسبحاً لله منزهاً إيَّاه قال: " سبحان من تنزه عن الفحشاء " العلماء يفهمون على بعضهم بعضاً يفهمون القول ولازم القول و هو ما الذي يريده قائله يعني يريد أن يقول أن أهل السنة الذين يقولون إن الله خالق كل شيء وأن العاصي لما يزيي أو لما يسرق أو لما يفعل أي فاحشه من الفواحش يفعل هذا بإرادة الله هذا بإرادة الله في الكون لا في مشيئته في شرعه لا في مشيئته في شرعه فيما يجب سبحانه، قال سبحان من تنزه عن الفحشاء، فأبو إسحق فهم، فقال سبحان من لا يكون في ملكه إلا ما يشاء، فقال أو يشاء ربنا أن يُعصى ، فقال له أبو إسحاق أو يُعصى ربنا قهراً ، المعتزلي يقول لأبي إسحاق أيشاء ربنا أن يُعصى، فقال له أبو إسحاق أو يُعصى ربنا قهراً ، هل العاصي يقهر الله عز وجل؟ معاذ الله.

فقال أرايت لو أن الله منعني الهدى وكتب عليّ الردى هل أحسن إليّ أم أساء ؟

فقال أبو إسحاق إن منعك الذي له فقد أحسن وإن منعك الذي لك فقد أساء.

هذا الأمر لله ليس لك الهدى، فكان العلماء كلماتهم قليلة لكن أفهامهم دقيقة وما في ولا كلمة زائدة كل كلمة تكون في المكان.

فالمخشري في كتابه الكشاف يقول ولكنه أخذ الى الأرض ولو شاء هو لرفعه بها فالمعصية تعود على من؟

على الإنسان وليس على الله جل في علا، هذا بناء على أصل مُعتقدي فاسد، فهذه الشنينة وسمّاها ابن القيم شنينة في آخر الكلام شَنِينَةٌ هكذا يضبطونها شَنِينَةٌ المخالف العقدي التي هي أصل ثم يبني على الأصل أشياء فبعض ما يبني عليه شَنِينَةٌ فهذا الذي يريد الإمام ابن القيم.

قال ابن القيم: قيل هذا من الكلام الملحوظ فيه جانب المعنى، المعدول فيه عن مراعاة الألفاظ إلى المعاني. وذلك أن مضمون قوله { وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا } أنه لم يتعاطى الأسباب التي تقتضي رفعه بالآيات من إثارة الله ومرضاته على هواه، ولكنه آثر الدنيا، وأخذ إلى الأرض واتبع هواه. وقال المخشري: المعنى ولو لزم العمل بالآيات و لم ينسلخ منها لرفعناه بها. وذلك أن مشيئة الله تعالى رفعه تابعة للزومه الآيات فذكرت المشيئة ومراده ما هي تابعة له ومُسَبَّبَةٌ عنه، كأنه قيل: لو لزمها لرفعناه بها. قال: ألا ترى إلى قوله { وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ } فاستدرك المشيئة بإخلاده الذي هو فعله. فوجب أن يكون: ولو شئنا في معنى: ما هو فعله، ولو كان الكلام على ظاهره لوجب أن يقال: ولو شئنا لرفعناه ولكننا لم نشأ.

يعني لو شئنا لرفعناه هذا معدول به عن الظاهر والمراد لو شاء هو على الأصل العقدي الذي هو مذكور عند المعتزلة.

مداخلة : نغيرها يا شيخ يعني ولو شاء هو أم ولو شئنا .

لو شئنا ولكنه أخلد إلى الأرض فلو شئنا لرفعناه بها هكذا أهل السنة يقولون أمّا المعتزلة ماذا يقولون ؟

لو شاء هو، لأن الشر لا يخلقه إلا الإنسان.

القران كيف علمنا ؟

القران علمنا أن الشر لا يُنسب إلى الله كما ثبت عن رسول الله ﷺ في صحيح مسلم قال " : وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ " الشر ليس لله سبحانه وتعالى وينسب الشر لله سبحانه تعالى بصيغه من الصيغ الله خالق كل شيء أولاً ، ثانياً بالفعل المبني للمجهول كما قلنا في الدرس الماضي (وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا) ، والأمر الثالث الشر يضاف لسببه قال الله تعالى: (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ)، فيضاف الشر لسببه.

ومن باب الأدب مع الله نقول كما علمنا إبراهيم (وإذا مَرَضْتُ فهو يَشْفِينِ)، المرض والشفاء من الله، ولكن المؤدب لا ينسب الشر إلى الله، فالله لا يلحقه شر لا في ذاته ولا في أسمائه ولا في صفاته ومُتَعَلِّق الشر بالنسبة إلينا - نَسْبَةٌ لِلْبَشَرِ - أما الله جل في علاه لا يُنسب الشر إليه، والله خالق الخير وخالق الشر ، هذا الذي قررناه وفصلناه طويلا في شرح كلام المقرئزي.

قال: فهذا من شَنْشِينَةٍ نعرفها من قدرِي نافيٍّ للمشيئة العامة.

انتبه قال، قَدَرِي، الأول معتزلي نافيٍّ للمشيئة العامة التي تخص مسيئة الله العامة التي تخص

الخير و الشر.

قال: مبعداً للنجعة في جعل كلام الله معتزلياً قدرياً فأين قوله ﴿ولو شئنا﴾ من قوله : ولو
لزمها، ثم إذا كان اللزوم لها موقوفاً على مشيئة الله - وهو الحق - بطل أصله.
وقوله : إن مشيئة الله تابعة للزومه الآيات: من أفسد الكلام وأبطله، بل لزومه لآياته تابع
لمشيئة الله، فمشيئة الله سبحانه متبوعة لا تابعة، وسبب لا مسبب، وموجب مقتض لا
مقتضى، فما شاء الله وجب وجوده، وما لم يشأ امتنع وجوده.
لأن الله لا يعجزه شيء .

الإمام ابن القيم له كلمتان مهمتان فصل فيهما المثل الذي معنا أختتم به درسي إن شاء الله .

الكلمة الأولى في كتابه الفوائد قال: وهذه الآيات

فيها مثل عالم السوء الذي يعمل بخلاف علمه يقول: وتأمّل ما تضمنته هذه الآية من دمه.

الآن يريد أن يذكر وجوه ذم العالم الذي هو شبيهه ببلعام

هل هذه الآية خاصة في بلعام؟

العبرة بخصوص السبب أم بعموم اللفظ؟

بعموم اللفظ.

ماذا يعني بعموم اللفظ؟

يعني ما أكثر البلعامات بلعامات كثر وليس بلعام ابن باعوراء واحد ما أكثرهم .

كيف ذم الله تعالى بلعام؟

إن صحت التسمية لأن النبي أمرنا أن لا نتكلم نسكت يعني لا نُثبت ولا ننفي ، العبرة بعموم اللفظ .

قال: أحدها هذه الوجوه التي تدل على ذم العالم الذي لا يعمل بعلمه:
الوجه الأول: ضل بعد العلم و اختار الكفر على الإيمان عمداً لا جهلاً.

الضلال بعد العلم أشد من الضلال بجهل.

علمائنا يقولون موضوع العذر بالكفر قد يقع الإنسان في الكفر وهو يجهل قال الكفر ولكنه لا يكفر لكن هذه الآية فيها ذم العالم الذي عنده علم و ليس عنده عمل ، وكان الوجه الأول من أوجه الذم أنه ظل بعد علم وأنه اختار الكفر عن عمد وقصد وقدمه على الإيمان .

الوجه الثاني: أنه فارق الإيمان مفارقه من لا يعود إليها انسلخ فأنسلخ مِنْهَا يعني بعض الناس قد يَظَلُّ ثم يتوب هذا الصنف في هذا المثل فارق الإيمان مفارقه أبديه مفارقه لا يعود إليها، فإنه انسلخ من الآيات بالجملة كما تنسلخ الحية من قشرها ولو بقي منها شيء لم ينسلخ منها ما بقي ولا شيء لو بقي شيء من العلم عنده ما انسلخ ما قال الله عز وجل عنه فأنسلخ مِنْهَا الضلال بعد العلم أشد من الضلال بعد الجهل.

الوجه الثالث: أن الشيطان أدركه ولحقه بحيث ظفر به وافترس ولهذا قال الله تعالى في المثل فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ ولم يقل تبعه الشيطان فإن في معنى فأتبعه أي أدركه ولحقه وهو أبلغ من تبعه لفظاً ومعنى، أتبع غير تبع فيه حرف زائد وزياده الحرف في المبني زياده في المعنى صار إمام للشيطان صار الشيطان يلحق به عادة الضالين أن يتبعون الشيطان لكن العالم إذا ضل، الشيطان يتبعه لذا خطر العالم إذا ظل عجيب غريب والذي يقرأ الواقع المعاصر في هذا الزمان و يقرأ المؤلفات يعني من أعجب ما وقفت عليه تلك المؤلفات التي كانت تؤيد وجود فرنسا في

تونس والمغرب وفي سوريا عالم يكتب أنه لازم تكون فرنسا في سوريا حتى تحفظ دماء المسلمين وفرنسا قتلت مئة ألف مسلم في سوريا جوعاً ماتوا جوع ومنعت وصول الطعام إليهم قبل الحرب العالمية الثانية أيام ما يسمى بالانتداب فتجد عالم يُصوّب أعمال الكفار وهذا شيء يعني قليل من كثير.

الوجه الرابع: أنه سبحانه لم يشأ أن يرفعه بالعلم فكان العلم سبب هلاكه لأنه لم يُرفع به فصار وبالاً عليه فلو لم يكن عالماً كان خيراً له وأخف لعذابه.

الوجه الخامس: أنه سبحانه اخبر عن خِسة هَمته وأنه اختار الأسفل الأدنى على الأشرف الأعلى.

الوجه السادس: أن اختياره للأدنى لم يكن عن خاطر و حديث نفس ولكنه كان عن إخلاد إلى الارض وميل بكُلّيته إلى ما هنالك وأصل الإخلاد الزوم على الدوام كأنه قيل لزم الميل إلى الأرض ومن هذا يقال أخلد فلان بالمكان إذا لزم الإقامة به ومنه قول مالك ابن نويرة لما قال بأبناء حي من قبائل مالك وعمرو بن يربوع أقاموا فأخلدوا .

ماذا يعني أخلدوا ؟

ثبتوا واستقروا عن الإقامة .

وعبر عن ميله إلى الدنيا بإخلاده إلى الأرض لأن الدنيا هي الأرض وما فيها وما يستخرج منها من الزينة والمتاع .

أُخلد إلى الأرض وما فيها من شهوات ليس له نصيب في الآخرة، الآخرة محرك دائم للقلب إلى اليوم الآخر إلى لقاء الله جل في علاه.

الوجه السابع: أنه رغب عن هداه واتبع هواه فجعل هواه إماماً له يقتدي به ويتبعه.

الوجه الثامن: أنه سبحانه وتعالى شبهه بالكلب الذي هو أخس الحيوانات همه و أسقطها نفساً و أشدها كلباً ولهذا شُبه بالكلب.

الوجه التاسع: أنه شبه لهفه على الدنيا وعدم صبره عنها وجزعه لفقدائها وحرصه على تحصيلها بلهث الكلب في حالتي تركه والحمل عليه وهكذا هذا إن تُرك فهو لهفان على الدنيا وإن وعُظ و زجر فهو كذلك فاللهف لا يفارقه على حال كلهث الكلب تزجره تعضه يلهث ما يعرف إلا الدنيا ما يعرف إلا الشهوة، ما يعرف إلا الدنيا ومتعلقات الدنيا.

الكلمة الأخيرة للإمام ابن القيم قوله في زاد المعاد وتأمل في حال إبليس لما كانت المادة المهلكة كاملة في نفسه لم ينتفع معها بما سلف من طاعته ورجع إلى شاكلته وما هو أولى منه وكذلك الذي آتاه الله آياته فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين وأضرابه وأشكاله فالمعول على السرائر والمقاصد و النيّات.

في في الشرع أعمال قلبيه وأعمال قلبية، أعمال في القلب وأعمال على الجوارح المساحة الواسعة في الشرع للأعمال القلبية، وأنت يا أيها الإنسان عند الله تسوى بمقدار همتك، وما هي نيتك، إذا نيتك في الحياة تحاطم في الدنيا، فوزنك بمقدار همتك، إن كانت همتك دينك فأنت تسوى عند الله بمقدار الهمة التي هي في ما بين جنبتيك.

قال: فكم من الغاوين وأضرآبه وأشكاله فالمعول على السرائر والمقاصد والنيآت والهمم فهي الإكسير هذا الإكسير الذي يقلب النحاس ذهباً الذي يقلب نحاس الأعمال ذهباً أو يرُدُّها خبثاً وبالله التوفيق.

ومن له لب وعقل يعلم قدر هذه المسألة وشدة حاجته إليها وانتفاعه بها، ويطلع منها على باب عظيم من أبواب معرفة الله سبحانه وحكمته في خلقه وأمره وثوابه وعقابه، وأحكام الموازنة و إيصال اللذة و الألم إلى الروح و البدن في المعاش و المعاد وتفاوت المراتب في ذلك بأسباب مقتضية بالغة ممن هو قائم على كل نفس بما كسبت.

طبيعة اللذة تتفاوت من شخص لآخر، يقول بعض الزُّهاد إن العُباد في لذه لو يعرفها الملوك لجالدوهم أي لقاتلوهم عليها بالسيوف. هذا المنحرف الذي لم يعرف اللذة إلا في الدنيا والخلود للدنيا، هذا ما عرف لذة المُنْجاة و الأُنس بالله واللجوء إليه سبحانه وتعالى .

فهذا مثل بليغ وهذا مثل كما قال الواحدي أشد مثل على العلماء وعلى طلبة العلم هذا المثل. السبب الخلود للأرض وأنه ما عبأ بأن يرتفع الرِّفْعَةُ الحقيقية لله سبحانه في العبادة .

نسأل الله أن يرفعنا ولا يضعنا نسأل الله أن يُثبِّتنا نسأل الله جل في عُلاه أن يرزقنا العلم مع الحلم .

هذا وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا مُحَمَّدٍ وعلى اله وصحبه أجمعين.

خدمة الدرر الحسان